الروائع النفسية
فى الرحمة المحمدية

إذا كان علماء النفس الغربيون فى عصرنا الحالى قد توصلوا إلى إدراك أهمية العفو لتجنب الصراعات النفسية والتمتع بالطمأنينة المعنوية، حيث يوجهون الناس بقولهم :(اعف عن الآخرين لتنعم بالراحة النفسية) (forgive for good) فالمسلم يقول : (اعف عن الناس ابتغاء رضى رب الناس) (forgive for god) (١)، وفرق كبير بين من يتخلق بالعفو من أجل تحقيق مصلحة شخصية فانية ،وهى الشعور بالطمأنينة الدنيوية، و بين من يعفو ليربى نفسه على التسامح و ينهاها عن الانتقام ابتغاء مرضاة الله، فيفوز بالحسنيين و هما الطمأنينة النفسية فى الدنيا والأجر والثواب من الله جل علاه فى الآخرة.

إ عداد:
رضى الحمرانى
باحث فى علم النفس
المغرب

إن سر نجاح الدعوة الإسلامية هو إكرام الله جل علاه لنبيه محمد صلّى الله عليه و سلّم بصفة الرحمة، فقد كان يعفو عن أخطاء أصحابه ويصفح عن زلات أعدائه ، وكان يصبر على كل هذه المضايقات لوجه الله تعالى، ولو لم يرحم هذا الضعف الأخلاقى للناس لما اعتنق أحد منهم الإسلام ، فكيف تتجلى إذن هذه الرحمة الربانية فى الشخصية المحمدية ؟ وكيف يمكن توظيفها لإصلاح مظاهر الخلل فى أخلاق المسلمين؟

الرحمة المحمدية للأصحاب والأعداء

إن النبى صلى الله عليه وسلم تعرّض فى أحيان كثير للإساءة من طرف الصحابة ، لكنه لم يكن يقابل السيئة بالسيئة بل وفقه الله تعالى لمقابلة السيئة بالحسنة، ففى معركة أحد أمر الرماة بالبقاء فى قمة الجبل حتى وإن تبيّن لهم أن جيش المسلمين قد انتصر لكنهم خالفوا تعليماته، و تسببوا فى انقلاب موازين المعركة رأساً على عقب ،وكاد النبى صلّى الله عليه وسلّم أن يُقتل من جراء ارتكاب الرماة لهذا الخطأ الفادح.

إن تصرف الصحابة بهذا الشكل أثار الإحساس بالغم والشعور بالغيظ فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم، لأنهم خالفوا الأمر الذى اتفقوا على تنفيذه بعد أن تشاوروا فيما بينهم، فقال الله عز و جل مخاطباً رسوله الكريم : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ)

(آل عمران: ١٥٩)

أى إياك يا نبى الرحمة أن تغضب من أصحابك أو تندم على استشارتهم فى أمر الدين، فطبيعتك الهادئة التى وهبها الله لك ستعينك على كظم غيظك وعدم إظهاره فى شكل تصرفات يطبعها التذمر والغضب.

لقد بَيَّنَ الله تعالى لنبيه ماذا سيحدث فى حالة التعبير عن انفعالاته، فقد يحوّله الغضب إلى شخص قاس غليظ القلب وأوضح له نتيجة هذا السلوك الانفعالى فى قوله جل علاه : (و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، أى أن رد فعل أصحابك سيكون هو النفور منك حين تقسو عليهم إن أخطأوا، لهذا فالله تعالى يُوَجِّهُ حبيبه للتحلى بأرفع خلق وهو العفو حتى لا تميل نفسه للخلق العادى، أى رد السيئة بمثلها وهو سلوك قد يذهب به إلى أبعد من ذلك، أى الوقوع فى الرد على الإساءة بإساءة أكبر منها، وهذا من شأنه أن يقلّل من فرص نجاح الرسالة المحمدية.

إن الله جل علاه حين قال لرسوله الكريم : (فبما رحمة من الله لنت لهم) فكأنه سبحانه يقول، أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هفوات أصحابك، ومادامت هذه الرحمة المحمدية نابعة من الله جل علاه فهى تجعل رسولنا الكريم قادراً على تحمل كل هذه المخالفات رغم كونها تثير نوعاً من الضيق والغم فى صدره، كما تجعله يشعر بأن سلطته لا جدوى منها فى بعض الأحيان(٢).

إن التذكير بهذه الرحمة ينبه النبى صلّى الله عليه و سلّم ويثير انتباه كل من تقلد زمام المسؤولية فى الأمة الإسلامية إلى الطبيعة النفسية لأفرادها، فهى أمة مكونة من بشر ضعفاء وليسوا ملائكة معصومين والبشر لا يخطئون فحسب بل هم خطّاؤون أى يخطئون و يكرّرون الخطأ عن غير قصد، و لهذا جعل الله هذه المسألة درساً لكل مسئول مكلف برعاية شؤون المسلمين.

إن هذه العاطفة المحمدية الرحيمة التى أودعها الله فى قلب رسوله الكريم وفعّلها صلّى الله عليه و سلّم فى تعاملاته مع أصحابه ونفّدها فى أقواله وأفعاله بعد أن تجاوز الرغبة فى توبيخهم و تحمّل الألم النفسى الناتج عن مخالفاتهم لأوامر الله تعالى وتعليماته النبوية، فلهذا كلّه التفّ أتباعه حوله وتشبثوا به وأحبوه ونصروه، وقد وجّه نبى الرحمة أصحابه لتفعيل هذا الخلق الكريم فى تعاملاتهم اليومية، فعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » رواه البخارى فى الأدب المفرد وأحمد فى مسنده.

ثم أردف الله تعالى قائلا فاعف

إن سعة الرحمة التى أودعها الله فى أخلاق سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم هى نبراس للمربين والأخصائيين النفسيين والمرشدين الاجتماعيين

عنهم و استغفر لهم و شاورهم فى الأمر) وهنا أكّد سبحانه على ضرورة حرص النبى صلّى الله عليه و سلّم على الاستمرار فى التشاور مع أصحابه رغم مخالفتهم لأوامره التى اتفقوا عليها قبل انطلاق معركة أُحُد، فالتأكيد الربانى على مداومة التشاور الجماعى للنبى مع أصحابه نابع من كون عيون هؤلاء المستشارين ترى الأشياء بوضوح حين تكون مجتمعة، لكن هذه العيون نفسها رغم تعقلها وحكمتها تعجز بمفردها عن النظر بموضوعية سواء فيما يرتبط بالمصالح الجماعية وحتى فى الأمور الشخصية لأن العواطف والانفعالات النفسية لكل مستشار تقف كالسحب التى تحجب عنه وضوح الرؤية، فقد تبدو له الأشياء القبيحة جميلة لأن عواطفه وأهواءه تزيّنها فى عينه فيلتبس عليه الأمر فيرى الباطل فى صفة حق.

إن حرص القائد على التشاور مع أفراد فريقه رغم وقوع بعضهم فى هفوات غير مقصودة، يعد درساً آخر لكل مسئول عن أمور المسلمين حين يُقبل على معالجة أموره الشخصية أوالشؤون المرتبطة بالأمة، فإن عقله لا ينظر إليها بموضوعية إلا إذا استعان بأهل الحكمة والرأى ليسدّدوا قراراته ويعينوه على تجنب إقحام أهوائه فى مختلف المسائل التى يكون بصدد الحسم فيها، حتى لا يتورط فى بلورة قرارات خاطئة و يتفادى الوقوع فى سوء التصرف(٣).

ولم يكتف الله عز وجل بتذكير خير سيد ولد آدم بالصبر على الشر الصادر من أصحابه، بل ذكّره أيضاً بصبره الجميل على سوء أخلاق أعدائه، فرب العالمين خاطبه بما معناه لقد طلبت منك يا رسول الهدى أن أهدى أهل الطائف حين ذهبت إليهم لتدعوهم للإسلام لكنهم أهانوك ورموك بالحجارة حتى نزف جسدك الشريف، فأرسلت لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فقال لك إن شئت أطبق عليهم الأخشبين أى الجبلين فأجبته، بروعة الرحمة التى تعطّر صدرك : (لا لا..عسى الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله) فقد واجهت السيئة بالحسنة ولذلك كنت تستحق منى الثناء حين قلت فى حقك : (و إنك لعلى خلق عظيم) (القلم : ٤).

فبهذه الرحمة التى قذفها الله فى قلبك واستثمرتها فى معاملاتك مع أصحابك التفوا من حولك، ووظفتها مع أعدائك فهداهم الله على يديك لأن أتباعك وأعداءك رأوا أدبك الجم الذى يثير الإعجاب وتواضعك الشديد الذى يُخجل من أساء إليك، وبسمتك الرقيقة التى تذيب همّ الحزين، ونظراتك العطوفة التى تؤنس وحدة المغتربين، ومواساتك لكل من أصابته مصيبة أو فاجعة، وطلعتك البهية على كل من لقيك فى الطريق، حتى إن وضعت يدك فى يد أحدهم لم تسحبها حتى يكون مصافحك هو أول من يسحبها.

إذا كانت هذه الروائع النفسية فى الرحمة المحمدية قد تحققت تجاه أنصار الدين الإسلامى وحتى مع أعدائه، فكيف يا ترى يستطيع المسلم الناجح أن يساعد إخوانه على التخلى عن مظاهر سوء الخلق و يعينهم على التحلى بحسن التصرف؟

٢- الدعم النفسى لذوى الأخلاق المذمومة

إن سعة الرحمة التى أودعها الله فى أخلاق سيدنا وحبيبنا محمد صلّى الله هى نبراس للمربين و الأخصائيين النفسيين والمرشدين الاجتماعيين، فكل واحد من هؤلاء ممن يحمل على عاتقه مسؤولية مساعدة الناس للإقلاع عمّا ألفوه من الطباع السيئة، عليه أن يعلم بأن هذا الأمر صعب و يحتاج إلى تودد ورحمة ولين وتأنٍ، فإذا حاول أحدهم الأخذ بيد المسىء للتخلص من عاداته السيئة و استعمل أسلوباً قاسياً، خشناً و فظاً فى دعوته لذلك، فهما أمران صعبان لا يستطيع صاحب الأخلاق الذميمة تحملهما فى وقت واحد، وهذا قد يجعل المربى يفشل فى عملية الإصلاح التربوى للنفوس.

فلا ينبغى للمرشد النفسى أو الاجتماعى أن يجمع على المسىء أمرين شديدين دفعة واحدة، أولهما هو تقبيح فعله المذموم، و ثانيهما هو حثه على الإقلاع عن هذه السلوكيات اللاأخلاقية، لذلك يقول الحكماء لمن يريد القيام بمهمة نصح الناس، إن النصيحة ثقيلة على النفس لأن معناها هو تجريم الفعل السيئ الصادر من المنصوح، فعندما تقول لشخص ما لا تفعل هذا فمعنى قولك أن فعله سيئ، و ما دمت تجرّم فعله فلا تجعله فى مواجهة أمرين صعبين فى نفس الوقت، سلوكه السيئ من جهة و تقبيحك لهذا السلوك من جهة أخرى.

إن المرشد النفسى أو الاجتماعى ينبغى أن يتعامل مع السلوك اللاأخلاقى للمسىء بشكل عكسى، بحيث يبدأ أولا بالمبشرات قبل المنذرات محاولا استثارة الجانب الخيِّر فى نفسه قائلا : (يبدو من ملامح وجهك أنك إنسان فيك خير كثير وهذا يتناقض مع ما تقوم به من تصرفات غير لائقة)، إن التحدث للمسىء بهذا الشكل لا يعنى أنك تجامله بل تصدقه القول لأنه ما من إنسان خلقه الله تعالى، إلا و قد أودع الخير فيه و تحدثك إليه بهذه الطريقة سيعطيه قوة لتحمل كلامك عن مساوئه، قال الله جل علاه : (وقولوا للناس حسناً) (البقرة : ٨٣).

إن أى إنسان يحتاج للملاطفة و الملاينة و طيب المحادثة لتستل منه الخصال القبيحة، كما يفعل الصيدلى حين يصنع دواء مذاقه مرٌّ لعلاج مرض معيَّن فتجده يمزج مرارة الدواء بحلاوة السكر بحيث يمر باللسان الذى هو مركز الذوق بلا ألم وبلا مرارة، لينزل الدواء إلى المكان المصاب فى الجسم فيشفيه بإذن الله جل علاه.

إن هذه الرحمة المحمدية فى الإرشاد النفسى والاجتماعى ينبغى أن تكون منهجاً نعتمده فى توجيه الأشخاص الذين نخالطهم و نتفاعل معهم فى حياتنا اليومية، فنقول على سبيل المثال لمن وقع فى خصام أو مشاحنة مع شخص آخر : (يبدو عليك أنك رجل عاقل، فلا تنزعج من التصرف غير اللائق الصادر عن الشخص الذى أخطأ فى حقك، وخير رد فعل يمكن أن تقوم به هو إيقافه عند حدّه بطريقة لبقة و بكلام موزون، وإلا فالسكوت والإعراض عنه أفضل من الانزلاق معه فى متاهات الجدال الكلامى العقيم الذى قد تؤدى بك إلى ما لا يحمد عقباه).

خاتمة:

إن الموقفين اللذين أوردناهما فى هذا المقال، وهما تعرض رسول الله لسوء المعاملة من طرف أهل الطائف والخطأ العسكرى الجسيم للرماة فى معركة أُحُد، يعتبران من أصعب اللحظات فى حياة النبى صلّى الله عليه و سلّم، وقد تعامل معهما بأعلى درجات الرحمة النبوية، والسر فى ذلك يرجع إلى أن الشخصية المحمدية يغلب فيها الحلم على الغضب، وكلما اشتدت جهالة الناس على هذا النبى العظيم ازداد حلمه قوة، وهذا ليس بالغريب على خير إنسان فى تاريخ البشرية، فقد جمع الله فى صدره رحيق الخصال الزكية التى تميّز بها كل نبى، فقد أوتى صبر أيوب وأوبة داود وحكمة لقمان وجمال يوسف عليهم جميعاً من الله أزكى السلام.

المراجع

١. د هشام المشد، العفو والصحة، مجلة الإعجاز العلمى فى القرآن و السنة، الصفحات : ١٨-٢٥، العدد ٣١، ذو القعدة ١٤٢٩ هجرية/أكتوبر ٢٠٠٨ ميلادية، جدة – المملكة العربية السعودية.

٢. محمد متولى الشعراوى (ت ١٤١٨ ه)، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، الجزء الثالث، الصفحة : ١٨٣٥، القاهرة – مصر، ١٤١١ هجرية / ١٩٩١ ميلادية.

٣. إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن الكريم، الجزء الثاني، الصفحات : ١٤٩-١٥٠، مطبعة الشعب، القاهرة – مصر ١٣٩١ هجرية / ١٩٧١ ميلادية.